من تراب الطريق (٣٦٩)

صلاح عبد الصبور (*) فى مدينة العشق والحكمة

كان من حظى أن اقتربت اقترابًا حميًا من الشاعر صلاح عبد الصبور فى العشر سنوات الأخيرة من عمره الذى قُصِف مبكرًا بأزمة قلبية طرأت فى حوار أضناه .. من اقترب من صلاح عبد الصبور الإنسان ، أو تابعه كاتبًا ، يعرف أن الشاعر موهبة فذة ومعها أيضا إعداد ثقافى ومعرفى وفكرى عميق .. وهى مسألة يجب أن يلتفت إليها من يظنون أن تعاطى الشعر محض توفيقات لفظية تراعى القافية وأوزان البحور فى الشعر العمودى أو إيقاع التفعيلة فى الشعر الحر ، فالشعر مع الموهبة ـ حالة تركيز مستقطرة من الحياة مجدولة بثقافة عريضة وفكر عميق !

لا شك أن من قرأ شعر صلاح عبد الصبور يدرك هذه المعانى ، وخذ مثالًا رائعته فى «مأساة الحلاج» ، ويدركها أكثر حين يقارن أشعاره وغيره من فحول الشعر قديما وحديثا ـ بما تجرى به أحيانا أقلام أو حناجر تظن أنها تنظم شعرًا ، فتقرأ الكلمات فلا تخرج إلاّ برنين لفظى خالٍ من فكر أو أعماق !

تذكرت ثقافة الشاعر وأنا أعود إلى كتاب صلاح عبد الصبور : «فى مدينة العشق والحكمة» .. المدينة التى يومئ إليها عبد الصبور مدينة

(*) المال٨/ ١٢/ ٢٠٠٩

رمزية تضم ما اختار أن يجول فيه بين أعمال الأحباء إليه من المفكرين والكتاب والفنانين .. يصدر فى اختياره لهم عن اقتناع يبديه بأن علاقة الكاتب بالقارئ ، والفنان بالمتلقى ، هى علاقة مركبة .. فيها جوانب من الاستمتاع ، وجوانب من الاقتناع ، وجوانب أيضًا من الألفة والمودة .

الحب هو هبة الفنان للقارئ ، والفنان الحقيقى هو الذى يستطيع أن يمد حبل الحب بينه وبين المتلقين فى عصره ، وتقاس عظمته بقدرة أعماله على إنتاج أحبال الحب فى كل العصور .. من هؤلاء العظماء انتقى صلاح عبد الصبور عددًا ممن أحبهم من الكتاب والفنانين ، يأخذ بنا لنطوف معه وإياهم فى مدينة العشق والحكمة التى طفق يتفقد جنباتها .

تشيكوف القصاص الروسى العظيم ، وجون أسبورن المؤلف المسرحى الإنجليزى رائد الجيل الغاضب من كتاب المسرح المعاصرين ، وجون إسكواير ومسرحيته عن اتهام شكسبير بأنه ليس مؤلف روائعه المسرحية المشهورة ، والثلاث عشرة قصة التى منعت رقابة التليفزيون الأمريكى ـ منعت المخرج الشهير ألفريد هتشكوك من إخراجها له .. والكاتب الأمريكى الراحل إرنست هيمنجواى الذى حطم قبل أن يموت غموض الحاجز التقليدى بين الكاتب والمحارب .. وتنيسى وليامز وقصته المشهورة «خريف امرأة أمريكية» .. واختار من الكتاب الفرنسيين «بيير بنوا» ، و «مارسيل بروست» الذى فهم القرن العشرين وفاز فى النهاية بالمجد المتصل .. كوميديات موليير وأونيسكو ، وخطر الانحراف بأداء مؤلفات موليير من «الكوميديا» إلى «الفارس» أو

«المسخرة» حسب تعبير المجمع اللغوى .. الكاتب المسرحى الأمريكى أوجين أونيل ومسرحيته الشهيرة «وراء الأفق» ، ومدى توفيقه فى تحقيق الارتباط الحيوى بين جدية النص الأدبى وغناه ، وبين ما تقتضيه أصول الحرفة المسرحية .

الآباء والأبناء فى مسرح ميلر ، وأسلوب الإسقاط التاريخى فى الأعمال الفنية لمعالجة القضايا المعاصرة .. «لوركا» شاعر الأندلس (!) ، والمصالحة القوية بين التراث والجديد ، وبين المسرح والشعر الغنائى فى أشعاره .. إطلالة على الشعر والشعراء فى أفريقيا .. قصة الكاتب الروسى الشهير «أهرنبورج» : «ذوبان الجليد» ، وقضية التعبير وأسلوبه كتحدٍ تواجهه الواقعية الاشتراكية فى الأدب والفن .

على قدر تنوع حيوات وأعمال هؤلاء الأحباء إلى صلاح عبد الصبور من الكتاب والفنانين والشعراء ، على قدر ما تشعب كتاب : «فى مدينة العشق والحكمة» .. ليس فى وسعى أن أنقل إليك فى هذا الحيز أفكار وومضات صلاح عبد الصبور وعمقها وصياغتها الرفيعة ..ولكن خذ معى مثلًا ما أورده عن قصة حياة الأديب الروسى العظيم تشيكوف أحب الكتاب إليه .. لترى مثابرة هذا العظيم على مقارعة الفشل والانتصار عليه فى النهاية .. جاء سقوط مسرحيته «النورس» وهو فى أوج مجده .. وكان سقوطها ذريعًا .. فقد كانت لا تكشف عن نفسها لأول وهلة كشأن كثير من الأعمال الفنية الكبرى .. لذلك احتوى تشيكوف إحساس عميق بالمرارة التى دفعته لحظتها إليعقد العزم على عدم الكتابة إلى المسرح مرة

أخرى .. ولكن هذا الأديب الفنان الذى اعتاد مقارعة الفشل ، تجاوز بعد قليل محنته النفسية ليشرق على الحياة المسرحية بروائعه : «بستان الكرز» و «الشقيقات الثلاث» وغيرها ، بينما احتلت مسرحية «النورس» ـ ولا تزال ـ مكانا مرموقًا فى المسرح العالمى دفع ويدفع كثيرا من المسارح فى انجلترا وأمريكا وروسيا لإعادة عرضها .

فى هذه المسرحية : «النورس» ، ملامح من «هاملت» حين تفتر وتتعقد العلاقة بينه وبين أمه ، وفيها انكسار الفنان الصغير حين لا يستطيع التعزى بنجاح فنه عن خيبة حياته .

فى موضع آخر يجيب صلاح عبد الصبور على تساؤل مثار : ما سبب «حظ» موليير فى المسرح المصرى ؟! فيورد أن السبب الأول هو دقة ومستوى الترجمة الزجلية للمرحوم محمد عثمان جلال فى أواخر القرن قبل الماضى لمسرحية «طرطوف» التى دارت أحداثها من «باريس» القرن (١٧) ، إلى «قاهرة» القرن (١٩) .. والسبب الثانى يرجعه صلاح عبد الصبور إلى طبيعة موليير ذاته الذى كان هدفه فضح العيوب الاجتماعية الشائعة ، كالبخل والنفاق والادعاء وغيرها ، فأودع هذه النقائص فى نسيج الشخصيات التى أدار عليها مسرحياته .

ترى كم نحتاج من تشخيص وتأليف إذا أردنا تجسيد ما بتنا نعانى منه من نقائص فى كل باب ؟!!

*****